PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(12): 1885-1904
ISSN: 1553-6939

Stylistic Phenomena in the Poem of Abu Hamo Musa II

Mohamed Messaoudene

Higher School of Teachers Taleb Abderrahmane Laghouat, Algeria
Email: messaoudenem2019@gmail.com

Received: 13/07/2024; Accepted: 27/10/2024; Published: 03/12/2024

Summary:

This study aims to highlight the poetic creativity in the ancient Algerian heritage, and its reliance on a great religious source through its reliance on the Holy Quranic stories with objective overtones. We also find a fair percentage of this poetry interacting with ancient Arabic poetry and intertextual with it. Many poets and writers excelled in this context. They had a position that placed them in the highest literary ranks, and the books of history and literature still contain names that shined in the world of literature. Others combined the sword and the pen. Among these writers is Abu Hamo Musa Al-Zayani II, as he was a glorious poet and had wonderful poems. I have chosen a poem of his in monologue, in a stylistic approach, to reach the desired goals through the rhetorical and semantic levels.

Keywords: Ancient Algerian poetry, Abu Hamou Musa II, stylistic analysis, rhetorical level, semantic level, intertextual level.

الظّــواهــــر الأسلـوبيّة فــي قـصيـدة أبي حمّـو موسـى الثّانــي

الملخص:

تهدف هذه الدّراسة إلى إبراز الإبداع الشّعري في التّراث الجزائري القديم، واتّكائه على رصيد ديني كبير، من خلال اعتماده على القصص القرآني الكريم من ايحاءات موضوعيّة، كما نجد نسبة لا

بأس بها من هذا الشّعر، تتفاعل مع الشّعر العربي القديم، وتتناص معه، وفي هذا السّياق برع العديد من الشّعراء والأدباء، كانت لهم مكانة بوأتهم أعلى المراتب الأدبيّة، وكتب التّاريخ والأدب لا زالت تحفظ أسماء لمعت في عالم الأدب، وأخرى جمعت بين السّيف والقلم، ومن هؤلاء أبي حمو موسى الزّياني الثّاني، حيث كان شاعرا مجيدا، له قصائد رائعة، وقد اخترت قصيدة له في المناجاة، في مقاربة أسلوبيّة، للوصول إلى الغايات المتوخاة من خلال المستوى البلاغي، والمستوى الدّلالي.

الكلمات المفتاحيّة: الشّعر الجزائري القديم، أبو حمّو موسى الثّاني، التّحليل الأسلوبي، المستوى البلاغي، المستوى الدّلالي.

مقدّمة:

يعدّ أبو حمو موسى الزّياني الثاني كواحد من أبرز الشّعراء في الأدب الجزائري القديم، وذلك لما له من خصوصية يمتاز بها في ميدان المناجاة، وقد ترك آثارا شعرية وأدبية ذات أهمية كبيرة وخاصة في مجال الدّعاء، وقد تفنن فيه بطريقته الخاصة، وقد وقع اختياري على قصيدة " **يا مجيب نداء المضطر** " أوردها عبد الحميد حاجيات في كتابه **أبو حمّو موسى الزّياني حياته وآثاره** بلغ عدد أبياتها واحدا وأربعين بيتا اخترت منها اثنين وعشرين بيتا.

يا من يجيب نـدا المضطـر في الدّيـج ويـكـشـف الـضّـر عـنـد الضـيق والهـوج
ولطـــف رحـمته يـأتـــي علـى قـنـط إذا القـنـوط دعـا يـا أزمـــة انـــفـرجـي
ومـن إذا حلّ خطـب واعـتـرت نـوب أبـدى من اللطـف ما لم يجـر فـي المهج
إنّـي دعـوتـك جـنـح اللـيـل يـا أمـلـي دعـاء مـبـتـهـل بـالـعـفـو منـتـهج
يا كاشـف الضّر عن أيـوب حين دعـا قد مسّـني الضّـر فاكشف كرب كلّ شجـى
أنـت المـنـجي لـنـوح فـي سفـيـنـتـه ومـخـرج يـونسـا مـن ظلـمـة اللـجـج
يا من وقى يوسف الصدّيق كـلّ أذى لـمّا رمـوه بِجُـبّ ضـيّـق حـرج

أنجى من النار إبراهيم حين رمي فيها وعادت سلاما دون ما وهج
يا من تكفّل موسى وهو منتبذ باليّم في جوف تابوت على لجج
يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفروا إذا جاءهم بكتاب غير ذي عرج
يا من وقاه الرّدى في الغار إذ نسجت ببابه عنكبوت خير منتسج
يا ربّ عبدك موسى قد دعاك عسى تنيله نفحة من نصرك الأرج
فكن نصيري فقد أصبحت مكتئبا والقلب من نكث الأوزار كالسبج
قد ضقت ذرعا بزلاتي وكثرتها فما اعتذاري إذا طولبت بالحُجج
وكم قطعت من الأيام في لعب وفي ضلال وكم ضيعت من حجج
وفي البطالة لهوا قد مضى عُمري آه لتضييعه في اللهو والمرح
وكم عصيتك جهلا ثم تسترني وباب فضلك عني غير مرتتج
مني الإساءة والإحسان منك بدا مني الذنوب وكلّ الفضل منك رجي
إنّي سألتك بالسّر الّذي ارتفعت به السماوات والأرضون لم تمج
أصلح بفضلك ما قد كان من خلل واجبر بحلمك ما قد بان من عوج
واجعل لنا مخرجا في إثره فرج فكم تعامل بعد الضيق بالفرج
وصلّ صلاة على المختار من مضر ما لاحت الشهب في الآفاق كالسرج[1]

1- المستوى البلاغي:

يعدّ الجانب البلاغي البنية المركزية للتحليل الأسلوبي وروحه، وأحد الوسائل الأساسية يعبر بها الأديب عن معانيه، والتأثير في المتلقي، وهو عمل إبداعي منشود يسعى إليه الأدباء، فيعمدون إلى تجسيده ذهنيا في مخيلة المتلقي، من خلال الأساليب الإنشائية والصّور البيانية والمحسنات البديعية، بحيث تظهر لنا طريقة عمل الأديب من خلال كيفية صياغتها الفنّية بطريقة تخصّه عن طريق

استخدام الاستعارة والكناية والتّشبيه الّتي تدعم خطابه الشّعري، وتقريب فكرته وتوضيحها وتقديمها في كامل أطوارها لتبليغ الرّسالة المقصودة.

1-1 الصــورة البيــانيــة:

الصّور البيانيّة لها أثر بارز تثبت مكانتها في العمل الأدبي، وتجلي ما في الخطاب من مزايا وقيّم فنّية وعلميّة، وقد استخدم القرآن الكريم في تعبيره التّصوير البياني، الّذي عجز الجنّ والإنس على أن يأتوا بمثله، حيث هذه الوسائل الّتي وضع عليها علم البيان هي- كما يراها الدّارسون- قواعد استخلصت واستنبطت من التّصوير الّذي انطوى عليه أسلوب القرآن الكريم.

والصّورة البيانية هي أحد الطرق الّتي ينقل بها الشاعر إلى المتلقين، أفكاره ورؤاه وعواطفه وتجربته الشّعرية الّتي عاشها عن طريق الخيال، لإعادة تشكيل الصّورة الحقيقية، جامعا بين العناصر المتضادة في وحدة واحدة، ولا تتأتّى هذه الظاهرة إلاّ للأديب الألمعي، والشاعر العبقري ذو الموهبة الأصيلة، فيترك في نفس القارئ مشاعر الرّفعة والسّمو، والمعاني الفكرية المثالية.

ومن مصادر الصّورة البيانية وأنواعها في الشّعر العربي، نذكر منها الاستعارة والكناية والتّشبيه، والمجاز، ويرى عبد القاهر الجرجاني أنّ الصّور البيانية:« تقوم رعايتها على علم البيان من تشبيه وتمثيل، واستعارة، وكناية. وهذه الوسائل تعطي ميدانا فسيحا وأفقا واسعا لإدراك مناحي الجمال، والتّعبير البلاغي والتّصوير الفني » [2]

وإذا أنعمنا النّظر في ما خلفه الشّعراء والأدباء العرب القدامى، نرى أنّ الاستعارة والتّشبيه والكناية والمجاز قد حظي كلّ نوع بعناية كبيرة من هؤلاء، وشاعرنا أبو حمو موسى واحد من الشّعراء الّذين أجادوا توظيف الصّورة البيانية توظيفا فنيّا فريدا لذا سأركز الحديث على بعضها بالشرح والتّحليل لفهمها.

أ- الاستعــارة:

تعتمد الاستعارة على نظام الانزياح، وهي في عرف البلاغيين ذكر أحد طرفي التّشبيه، فهي– إذن– قائمة على مبدإ التّشابه، ولأهميتها نجد أبا حمو موسى قد وظّف كثيرا من الاستعارات المتنوعة، نذكر منها:

ولطـف رحـمته يـأتـي علـى قـنـط إذا القـنـوط دعـا يـا أزمـة انـفـرجـي

في

صدر البيت شبه أبو حمو لطف الرحمة بشيء يتحرّك، وفي العجز جعل الأزمة تنفرج، فهاتان استعارتان مكنيتان؛ إذ جعل اللطف يشبه الإنسان ترك المشبّه " اللطف " وحذف المشبه به(الإنسان) وأشار إلى لازم من لوازمه وهي الفعل" **يأتي**" على سبيل الاستعارة المكنية. وشبّه الأزمة كباب إذا طرقته ينفتح، فحذف المشبه به " الباب " وأشار إلى لازم من لوازمه " انفرجي "، يتبين لنا من هذا التعبير أنّ الله رحيم بخلقه، يفتح بابه لكلّ سائل ليس فقط للعابدين الطائعين بل وحتى المذنبين العاصين.

ومـن إذا حـلّ خطـب واعـتـرت نـوب أبـدى من اللطـف ما لم يجـر فـي المهـج

وردت الاستعارة في عبارة " **حـــل خطـــب** "، حيث شبه الشاعر الخطب بالإنسان، وذكر المشبه وهو الخطب، وحذف المشبه به وهو الإنسان، وأبقى على لازم من لوازمه وهو الفعل " **حـلّ** " من باب الاستعارة المكنية.

كـم جدت بالفضـل والإحسـان منك وكم سـتـرت بالفضـــل من أفعـالي السمـــج

وردت الاستعارة في عجز البيت"**سـتـرت بالفضـــل**" حيث شبه أبو حمو موسى الزياني الفضل بشيء مادي، وذكر المشبه وهو الفضل وحذف المشبه به وهو الشّيء المادي، وترك لازم من لوازمه وهي الفعل" **سترت**" نسمي هذا النوع من المجاز بالاستعارة المكنية.

ما نلاحظه في دراستنا لهذه القصيدة، قد أكثر أبو حمو موسى من استخدام الاستعارة المكنية، فهو يصور إحساسه من خلال عبارات الحزن والقنوط، فهو يعبر عن موقف صادق من خلال

توظيفه للاستعارة المكنية، دون التّصريحية لأنّ المكنية أبلغ وهي الأكثر قدرة على تشخيص الصّور وبعث الحياة نظرا لما تتميز به من كمية الخيال، وقوّة التّعبير ودقّة التّصوير.

ولعلّ الاستعارة المكنية هنا تكشف أهميّة المناجاة في حياة الإنسان، كما لا يمكن للدّاعي أن يغفل عن دوره في استقامة حياته، كالتّعجيل بالتوبة في حال العصيان والغفلة.

ب- التّشبيـــه:

يرى الكثير من البلاغيين التّشبيه على أنّه صورة حسّية شكليّة بلاغية، بين لفظين يشتركان في المعنى نفسه، الغرض منه توضيح الفكرة وتقويتها، وتقريب الصّورة إلى ذهن المستمع أو المتلقي. وعلى هذا الأساس فإنّ قصيدة أبي حمو موسى تفصح عن تواصل الذّات الشاعرة بالذّات الإلهيّة في كلّ الأوقات، وهذا حال المخلوق بخالقه، ومن الصّور الّتي تعبر عن الحزن والانكسار والضعف قوله:

فـكن نصيري فـقد أصبحت مكـتئـــبا والقـلـب مـــن نـكـــث الأوزار كـــالسّـيـــج

في هذا البيت صورة تقوم على **التّشبيه المرسل المجمل**، تصوّر قلب شاعرنا من كثرة الذّنوب والأوزار وما علق به، يُشْبِهُ إلى حدّ كبير السّبج الّذي يعني الخرز الأسود، هذا التّعبير يؤكد حقيقة معاناة أبي حمو موسى من اكتئاب نتيجة اقترافه للآثام، وهو اعتراف بضعفه ونقصه، والّذي لا يخفى علينا أنّ مثل هذا الاعتراف بالنّدم، لم يصدر من إنسان عادي، بل من سلطان وملك الدولة الزّيانية، ولم يصرفه الحكم وينسيه اللجوء في مثل هذه الأوقات إلى الحكم العدل بالتّضرع إليه وطرق بابه. فهو الملاذ لمن لا ملاذ له.

ومن تشبيهاته أيضا قوله:

مـحـمـد خـيـــر خـلـق الله قـاطـبـــة نـور الهـدى وإمـام الرّسل والمـرج

فأبو حمو موسى الزياني شبه الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل وخير الخلق بـ" **نور الهدى** " والحقيقة أنّ الرسول نور وبدر التّمام ، فاكتفى شاعرنا بذكر المشبه مع المشبه به وتخلى

عن الأداة ووجه الشّبه، نسمي هذا النوع من المجاز بالتّشبيه البليغ. ومن ذلك قوله أيضا في البيت الأخير:

وصـلّ صلاة عـلى المخـتار من مضـر ما لاحت الشهـب فـي الآفـاق كالسـرج

فالشاعر يصور في هذا المشهد " **الشّهب في الآفاق** " يُشَبِهُها بالسرج، وذكر أداة التّشبيه وهي حرف" **الكاف**" ووجه الشّبه وهو" **اللوحـان** " وهذا النوع من التّشبيه يسمى بالتّشبيه التّام(المفصّل).

ج-الكنـــايـــة:

وظف أبو حمو موسى الزّياني الكناية في قصيدته، لإيصال المعنى للمتلقي عبر تجسيده لكثير من العبارات الدّالة على الحزن والرّجاء وتعلّق ذات الشاعر بالذّات الإلهيّة وهو أمر لا بدّ منه، فأبو حمو كشف لنا عن حالته النّفسية خلال مسيرتها، ومدى معاناة الذّات البشرية عند غفلتها عن ذكر ربّها. قال الشاعر في هذا المعنى:

يا من يجيب نـدا المضطـر في الدّيـج ويـكـشـف الـضّـر عـند الضـيق والهـوج

هنا في قوله" **يا من يجيب نـدا المضطـر**" كناية عن موصوف ومراده هو الله سبحانه وتعالى. وأبو حمو أراد المعنى الكنائي هنا لتجسيد المعنى وتوسيعه لدى المتلقين ليشعروا مع أبي حمو بعظمة الله الّذي يستجيب لدعاء الجميع له، ويفرج كربهم ويزيل همومهم، كما أكّد أيضا على الاهتمام بالدعاء والحرص عليه، ليدفع الأهوال والكروب.

وقال أيضا في بيت آخر:

يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفـروا إذا جـاءهـم بـكـتـاب غـيـر ذي عـــرج

في هذا البيت أورد أبو حمو فيها الكناية، حيث كنى في صدر البيت عن كفار قريش الّذين آذوا رسول صلى الله عليه وسلم، وتفننوا في الكيد عندما دعا إلى الدّين الإسلامي:(الأولى كفروا)، باعتبارهم موصوفا مقصودا من الكلام، وهي كناية قريبة يوضحها الفعل "**كفروا**"، أمّا في العجز فقد كنّى عن موصوف هو القرآن في قوله:(كتاب غير ذي عوج)، تُحمل هذه الجملة على التأويل، حيث

يمكن أن نفهم من دال"**كتاب**"، أيّ كتاب يأتي رسول الله من جهة معيّنة؛ أي مبعوث برسالة من ملك إلى آخر. لكنّه كتاب موصوف بصفة غير ذي عوج، ف**(الكتاب)** يقصد به القرآن الكريم، وإن كانت هناك كتب أنزلها الله تعالى على أنبيائه مثل: الزّبور، التّوراة، الإنجيل،...ف" **كتاب** " ينفتح على جملة من القراءات والتأويلات، إذا نظرنا إليه من زاوية الشّكل المجرد (كتاب) مطبوع، منسوخ، أمّا بالرجوع إلى المرجعية الثّقافية في الفكر الإسلامي نجد أنّ لفظة كتاب إنّما هي للدّلالة على موصوف هو القرآن الكريم. ومن الكناية أيضا ما جاء في قوله:

وصـلّ صلاة عـلى المخـتار من مضـر ما لاحت الشّهـب فــي الآفـاق كالسّــرج

لأبي حمو موسى لغته الإشارية الّتي تجعل القارئ يبحث عن الدّلالة المتخفيّة خلف أستار الألفاظ، فالمتأمل في لفظة " **المخـتار** " يجد أنّها بنية سطحيّة المستوى، وهي كناية عن موصوف، مقصود منها الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ هو الّذي اختاره الله ليبلغ الرسالة إلى النّاس أجمعين.

وخلاصة لما ذكرناه، أنّ أبا حمو موسى الثاني قد أجاد توظيف الصورة البيانية بألوانها المختلفة؛ من استعارة وتشبيه وكناية، من أجل ترسيخ كثير من القيّم المادية المحسوسة، كما أحسن ترسيخ كثير من القيّم المعنوية والخلقيّة الّتي طالما افتخر بها كاتصافه بالصبر وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

2- المستوى الدّلالـــــي:

يهدف المستوى الدّلالي إلى جمع مجموعة من الكلمات الّتي تترابط بعضها ببعض ضمن الحقل الدّلالي الواحد، الغرض منه الكشف عن مجموعة من العلاقات الّتي تصل كلّ منها بالأخرى، وصلة كلّ كلمة بالمفهوم العام للحقل، فالهدف الأساسي للحقول الدّلالية هو « أن تكون كلّ كلمة متخصصة في حقل دلالي معين، والكشف عن علاقاتها المعنوية مع بعضها، وعلاقاتها بالمصطلحات العامة الّتي تتفق مع الكلمة ».[3]

وبعد أن درست قصيدة أبي حمو موسى الزياني، توصلت إلى بعض الحقول الدّلالية الّتي تبرز عنده تتلخص فيما يلي:

2-1 دلالة العنـوان:

القصيدة مُعَنْوَنَة بـ: **يا من يجـيـب نداء المضـطـر**، كما وردت في كتاب عبد الحميد حاجيات، جاء على شكل جملة، وهو عنوان موضوع ليس من وضع الشاعر ويبدو لي أنَّ الشّعراء القدامى لم يكونوا يضعون عناوين لقصائدهم على عكس الشّعراء المعاصرين فإنّهم يضعون عنوانًا لكلّ قصيدة ولكلّ ديوان يصدر لهم، ولا يكون ذلك اعتباطا، وإنّما عن قصد وبعد تأمل لأعماق تجربته، بحيث يأتي العنوان دالاً بشكلٍ واضح على ما أراد أن يستثيره لدى قارئه.

وتتنوع الخطابات الصّوفيّة بتنوع مداخلها الّتي يمكن الشّروع في دراستها أسلوبيا، وتظلّ السّمة المشتركة بين هذه المداخل هي البدء باللغة أو منها، واختيار عبارة دالة مميّزة لفتح وشرح عالم النّص كلّه، وتسمى هذه العبارة " المفتاح"، وقد تكون كلمة أو جملة، وقد تكون ذات دلالة معنوية أو تركيبية أو صوتيّة، وقد تصدر عن المؤلف بوعي أو بدون وعي، ومفتاح هذه القصيدة هو جملة " **يا من يجيب نداء المضطر**" الّذي افتتح بها أبو حمو قصيدته وهي جملة تتألف من حرف النّداء"يا" و"مَنْ" الموصولة(المنادى) والجملة الفعلية من الفعل والفاعل والمفعول به" **يجيب نداء المضطر**"، فالعنوان يشرح القصيدة ممّا يوحي إلى دلالات تعبر عن الحالة النّفسية لأبي حمو موسى، قد يكون أراد أن يصوّر مبلغ اليأس والقنوط الّذي أصابه، ليصوّر على إثرها مبلغ الحبّ تجاه محبوبه الّذي يلجأ إليه في كلّ لحظة وحين، وما أن نقرأ عنوان القصيدة حتى يتّضح لنا أنّها جاءت للحديث عن مأساة أبي حمو موسى خلال مسيرة حياته، إذ استخدم عبد الحميد حاجيات هذا العنوان، جعلت الدّارس يأخذ تصوّرا عاما للقصيدة.

والواضح أنّ العنوان المتداول في هذه الجملة كان ذا دلالة معنوية؛ فهي تعبر عن ضعف المخلوق الّذي يشيع في كلّ القصيدة ورجائه في نفس الوقت من الّذي ذلّت له الرّقاب وما إلى ذلك من العبارات الدّالة على علة المعاناة الّتي عاشها أبو حمو الزّياني.

2-2 حقل الحزن:

يعدّ هذا الحقل من أهمّ الحقول الّتي شغلت القصيدة، فقد تعددت ألفاظ أبي حمو موسى، يدور مفهومها حول هذا الحقل، ويرجع هذا إلى معاناة شاعرنا في مملكته وما يحيط بها، ونذكر من هذه الألفاظ الدّالة على ذلك:(الضّيق- القنوظ- خطب- نوب- الضّر- كرب- شجى- منتبذ- الرّدى- مكتئبا- ضلال- الإساءة- الذّنوب- خلل- عوج)

إذا كان هذا الحقل يعتمد على هذه الألفاظ الّتي تأخذ في ظاهرها شكل الحزن والضّيق، فإنّها في الباطن إنّما هي توبة وأوبة إلى الذّات العليّة، والحقيقة أنّ هذه الألفاظ ما هي إلاّ تفسير لنفسية أبي حمو موسى الّتي تبرز الشّعور المؤلم والمعاناة الّتي ألمت به، ورغم هذا التّصريح الّذي بدا منه، والّتي تظهر ضعف هذه الشّخصيّة - وهي ميزة بشرية لا ينكرها أحد- لا تستطيع أن تتكيّف مع العالم المليء بمشاكل الحياة الواقعيّة، فليس له بدّ من أن يلجأ إلى الرّكن الرّكين والحصن الحصين، بهذا الحقل يمكن لنا أن نفهم شخصية أبي حمو موسى، وبالتّالي يتمّ تحديد شخصيته بالكامل.

2-3 حقل الطّبيعة:

نجد في هذا الحقل الكثير من مظاهر الطّبيعة جاءت على النّحو الآتي:(الدّيج - الليل- اللجج- النّار- اليمّ- النّور- السّموات- الأرضون- الظلمة- الغار- الشّهب)

يمكن لنا أن نوجز هذا الحقل ونجعله مجموعتين؛ مجموعة السّماء وتظمّ الألفاظ الآتية: [الدّيج- الليل- النّور- الظلمة- الشّهب]، ومجموعة الأرض وتظمّ مايلي:[النّار- اليمّ- الظلمة- الغار]. فأبو حمو موسى قد وظّف في قصيدته كثير من الألفاظ الّتي اعتمد فيها على الرّموز المجسدة لعواطفه وأفكاره، واستطاع شاعرنا من خلال خطابه الصّوفي تحويل الطّبيعة إلى رموز معبّرة عن

حالته النّفسيّة الّتي أرهقها القنوط والألم بصورة مباشرة، فوجد في حقل الطّبيعة متنفسا وسلوانا ساعده على التّخفيف من آلمه بوثوقه بما له صلة بالذّات العليّة، فحين يذكر الليل واللجج والدّيج والظلمة إنّما هي مظهر من مظاهر الغموض تعكس لنا الحالة النّفسيّة الكئيبة الّتي تشبه إلى حدّ كبير شدّة ظلام الليل وظلام لجج اليمّ، لتأت لفظة **النّور** وتغيّر الواقع وتزيل الضباب الّذي حجب عن شاعرنا الآفاق، فكم من مآس تجددت وآلام تعددت، ولكن لم نر لها سيطرة كليّة دائمة على أبي حمو، وواضح أنّ الوقت الّذي تعرض فيه الشاعر إلى المحنة، رفع يديه مناجيا الله أن يجعل من هذه المآسي الّتي يعيشها أن تنقلب إلى أحسن حال. وبذلك استطاع أبو حمو أن يعبر عن عالمه الدّاخلي من خلال العالم الخارجي، ويكشف عن العلاقة القوّية بينهما

2-4 حقل أفضل الخلق (الأنبياء والرسل):

أكثر أبو حمو موسى في قصيدته بذكر طائفة من الأنبياء والرّسل عليهم الصّلاة والسّلام، وهذا ديدن كلّ صوفي عاشق لله ولأنبيائه، فلا تكتمل محبّة الله إلاّ بمحبة رسله.

ولا يفوتنا، ونحن بصدد الحديث عن ما يندرج في هذا الحقل، أن نلاحظ أنّ الشّعراء الصّوفيّة في كلامهم عن الرّسل والأنبياء، لا يعني ذكرهم لمجرد الذكر فقط، وإنّما تأسيا بهم وبأعمالهم وكيف صبروا على الشّدائد والمحن، فإن لم يكن ذلك تكون العاقبة هوانا وهلاكا، وفي اهتمام شاعرنا بشخصية الأنبياء وبسيرتهم دليل واضح على حبّه وتعلّقه بهم والّذي يرتقي به إلى الحبّ الإلهي، لينال في الآخرة أفضل وأوسع الجنان، وهذا الّذي نحن بصدد الحديث عنه.

لقد عمد أبو حمو إلى ذكر أمثلة عديدة، تنوعت فيها الدّلالات والإشارات فحينما يتحدث عن معاناة الأنبياء وصبرهم إنّما يتحدث عن نفسه، واعتبرهم قدوة له في أعماله وأفعاله. ومن بين أسماء الرّسل الّتي ضمّن بها قصيدته **نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصّلاة والسّلام**، وهؤلاء هم ألو العزم من الرّسل، وإذا حاولنا أن ننظر لماذا ذُكِرَ هؤلاء بالذّات؟ نجد أنّهم أكثر الأنبياء بلاء من إخوانهم، وأشدّهم صبرا على أقوامهم، وما يتعرضون له من طرف مجتمعهم، وإن جاز لي التعبير

قلت: أنّ حال أبي حمو أشبه بحالهم لما تعرض له من معاناة قاسية وملاحقة مستمرة من ابنه كما أشرنا إليه سابقا. كما عرج كذلك على ذكر بعض الأنبياء وهم أيوب ويونس ويوسف الصّديق عليهم الصّلاة والسّلام، وكان لزاما على أبي حمو أن يستعرض بعض الأنبياء والرّسل على سبيل التّمثيل والاستشهاد لأنّ جميعهم مبلغين دعاة لله تعالى.

ولا يخفى علينا ما في هذه القصيدة من محبّة الشاعر للرسول صلى الله عليه وسلّم، فقد حظي ذكره أكثر من ذكر إخوانه المرسلين، فمرة ذكر باسمه محمد ومرة ذكره بصفاته كالمصطفى وخير الخلق ونور الهدى وإمام الرّسل والمختار عليه أفضل الصّلاة والسّلام .

2-5 حقل وسائل النّجاة:

في هذه القصيدة يريد أبو حمو موسى أن يبرز أهمّ الوسائل الّتي كانت سببا في نجاة الأنبياء والرّسل، كالسّفينة والتّابوت، ويمكن لنا أن ندرج الحوت والنار والجبّ والغار في إطار وسائل النّجاة أيضا، لاعتقادنا أنّها حفظت أحبّ خلق الله من كيد الكائدين، فقد أوتي كلّ نبي وسيلته الخاصة به، نعدّها معجزة مؤيّدة من الله تعالى، فهذا الحقل يتضمن في الحقيقة حقبة زمنية تاريخيّة لكلّ رسول من الرّسل، وقعت في زمنه حادثة نسبت إليه، فأبو حمو موسى بذكره لهذه الوقائع إنّما يقصد اكتشاف الأوقات الصّعبة الّتي عانى منها أفضل خلق الله في تبليغ رسالته، فهم أشدّ الناس بلاءً، وأقوى إيمانًا، وكيف كان موقف أقوامهم منهم؟ ومدى صبرهم على الأذى بأنواعه. فلم يجدوا ملاذا وناصرا وكاشفا لمعاناتهم إلاّ الله تعالى، فلم يكن من أبي حمو إلاّ أن يحذو حذوهم ويسير على نهجهم.

وإذا كان شاعرنا قد اختار أن يقدم للمتلقي هذه الأحداث الدّينية التّاريخية في شكل قصيدة شعرية صوفيّة، فإنّ هذا يفرض علينا أن نكون ذا صبر كبير ويقين واسع بالله تعالى في مثل هذه الأحداث.

والملاحظ في هذا الحقل أنّه ذو دلالات مشتركة كونها سمات محسوسة ضرورية تعلق أصحابها بها، فيلجؤون إليها برغبة منهم؛ كركوب نوح عليه السّلام السّفينة مع الّذين آمنوا معه، ووضع أم

موسى رضيعها في التّابوت، ودخول الرّسول صلى الله عليه وسلم الغار مع أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، أو بغير رغبة كالنار الّتي سعرها النّمرود للخليل و إلقاؤه فيها، والتهام الحوت ليونس ورمي يوسف الصّديق في الجبّ عليهم الصّلاة والسّلام.

ومن هنا يتّضح لنا أنّ المتأمل في هذه الوسائل المنجية يخرج بانطباع خاص، كون هذه الوسائل ذات قاسم مشترك والمتمثلة في الظلمة المتفاوتة من وسيلة إلى أخرى، ولا بأس أن نعيد ذكرها مرّة أخرى؛ فأشدّها ظلمة ظلمة بطن الحوت والجبّ والغار والنار فالسّفينة والتابوت، هذا الظلام كان محاط بالأنوار، فلولا هذه الظلمة لما ظهرت هذه الأنوار، ذلك ما نلمسه في عرف الصّوفيّة إذ الظلمة « تعني لهم العلم بالذّات الإلهيّة، فإنّه لا يكشف معها غيرها»[4]

والحقيقة الّتي نعرفها ونؤمن بها أنّ النّور هو اسم من أسماء الله الحسنى هذا النّور تجلى على أنبيائه « وهو عبارة عن ظهور الذّات لذاتها في عين وحدتها...وهو أصل جميع الأسماء الإلهيّة».[5]

وهكذا أدّى هذا الحقل دور هام في بناء هذه القصيدة، ولم يبتعد أبو حمو عن الحقيقة الّتي أرادها كلّ صوفي.

والّذي يجب أن نلاحظه بعد عرضنا لهذه الحقول- حسب اجتهادنا- هو أنّ هنالك نهجا واحدا استقطب كلّ الشّعراء الصّوفيين الجزائريين في الخطاب الصّوفي بصفة عامة، وهو طريقة التّصوير الإبداعية، والتّعبير عن خلجات النّفس بصدق الّذي كان معادلا لانفعالها وتوصيل الرّسالة الّتي يريدها الخطاب إلى المتلقي، حقق المتعة الجمالية وكشف عن الطاقة التّعبيرية الكامنة فيه.

3- مستوى التّنـاص:

يكتسي التّناص أهميّة بالغة في الدّراسات الأدبية، باعتباره تقنيّة مميّزة عُنِي به الشّعراء والأدباء، واحتفوا به وجعلوه عملا من الأعمال الإبداعية، يتحكم فيه مبدعوه، ويوجهوه الوجهة الّتي تحقق غايتهم، ليكشف جمال أسلوبهم لما يحويه من دلالات قوية، وطاقات إبداعيّة. ولما كان التّناص بهذا

الشّكل من الجماليّة والفنّية والابتكار، فإنّ أبا حمو موسى اتّخذه سبيلا للاستزادة من أنواع الجمال المتعدد في قصيدته الصّوفيّة، وقد ركزت في هذا المستوى على دراسة التّناص بالقرآن الكريم والتّناص بالشّعر العربي.

3-1 التّناص بالقرآن الكريم:

يعدّ القرآن الكريم رافدا غنيًّا، ومنهلا عذبا للشّعراء وخاصة الصّوفيّة؛ لأنّه يحتوي على قيم فكرية، ومناهج سامية، بأسلوب راق محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وفي دراستنا لقصيدة أبي حمو موسى نجده يأخذ كثيرا من النّصوص القرآنيّة تتفاعل وتتضافر مع خطابه الصّوفي، أعطت دلالة عظيمة وقوّة خاصة ساهمت في تشكيل بنية النّص الأسلوبية، توحي بتدين شاعرنا وتوجهه الدّيني واسترشاده بكلام الله تعالى. فمن نماذجه قوله في أوّل بيت:

يا من يجيب ندا المضطر في الدّيج ويكشف الضّر عند الضيق والهوج

يستحضر أبو حمو قول الله تعالى: ﴿ **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ الْأَرْضِ..**﴾[6] ، ويقول في موضع آخر:

ولطف رحمته يأتي على قنط إذا القنوط دعا يا أزمة انفرجي

فالشّاعر في البيت الثّاني يستدعي قول الله تعالى:﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾[7]

ولنفس الغرض – أيضا – قال أبو موسى في قصيدته:

يا كاشف الضّر عن أيوب حين دعا قد مسّني الضّر فاكشف كرب كلّ شجى

أنت المنجي لنوح في سفينته ومخرج يونسا من ظلمة اللجج

يستحضر أبو حمو موسى في صدر البيت الأول قصة أيّوب عليه السّلام، وما كان ابتلاه الله من سقم في جسده ومصيبة في ماله وولده، فلم يبق شيء في بدنه إلاّ والضّر قد أحاطه وحواه سوى

قلبه، ولم يبق من الدّنيا له من يعينه على مرضه غير زوجته الّتي حفظت ودّه لإيمانها بالله تعالى وبنبيّه الكريم، وبقي على هذا الحال مدّة طويلة إلى أن أذهب الله عنه البلاء، حيث قال في سورة الأنبياء:﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** ﴾،أمّا عجز البيت الثّاني فيستحضر أبو حمو آية من نفس السّورة، وهي قصة يونس الّذي التهمه الحوت، فشهد ظلمات ثلاث؛ ظلمة الليل، وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، وعبّر القرآن عن هذا المشهد، فقال تعالى:﴿ **وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[8]

كما يورد أبو حمو قصة شيخ الأنبياء نوح عليه السّلام الّذي أغرق الله قومه بما فيهم ابنه، ونجّاه والّذين آمنوا معه، وذلك في قوله تعالى:﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ** ﴾[9]

، ليشير الشاعر بعدها مباشرة في البيت الموالي إلى قصة يوسف عليه السّلام، وكيف دبّر إخوته كيدهم ليلقوه في الجبّ، وفي هذا إشارة إلى الكره والحقد الّذي كان يناضل الإخوة من أجله لإبعاد يوسف عن أبيه يقول أبو حمو:

يا من وقى يوسف الصدّيق كــلّ أذى لــمّا رمـــوه بِجُــبّ ضــيّــق حـــرج

فقد أحذ معنى هذا البيت من قول الله تعالى:﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾[10]

ثمّ يعرض لنا أبو حمو قصة أخرى لنبي الله إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام، حين ألقي به في النّار نتيجة لكفره بعبادة الأصنام وتحطيمها، فأصاغها شاعرنا بأسلوبه الّذي لم يخرج به عن أسلوب القرآن الكريم، بقوله:

أنجى مــن الـنـار إبـراهـيـم حيـن رمـي فـيها وعـادت سـلامـــا دون مـــا وهـــج

يشير هذا البيت إلى قول الله تعالى:﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وانْصُرُوا آَلِهَتُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴾[11]

، ويقول أبو حمو بعد ذلك:

يا من تكفّل موسى وهو منتبذ باليّم في جوف تابوت على لجج

ويصوّر أبو حمو موسى بعد ذلك مشهدا عجيبا من قصة موسى عليه السّلام، وعن المشاهد المأساوية الّتي عانت منها أم موسى من بطش فرعون، مركزا في ذلك على عناية الله ولطفه بالرّضيع في برّه وبحره، وتناص هذا البيت مع قول الله تعالى:﴿ **وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ** ﴾[12]

ليختم شاعرنا في الأخير بسيره عطرة لأفضل خلق الله سيدنا محمد عليه أفضل الصّلاة والسّلام، ويذكر جانبا من المعاناة لهذه الشخصية، وكيف وقف المشركون سدّا منيعا في وجوه الّذين آمنوا، واتّحد الكفار لتحطيم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفنّنوا في ألوان المكر وأفانين الخداع، وحاول أعداء الحق والخير، أن يسلكوا نفس الطريق الّتي سلكتها الأمم السابقة في التّفنن لقتل أنبياء الله، ولكنّ الله كان لهم بالمرصاد.

وتكمن رمزية المصطفى في اصطفائه من بين الخلق، وتفضيله على البشر ونجاته من الهلاك بفضل خيوط واهية نسجتها العنكبوت على فتحة الغار لكي لا يراه الكفار، وأيّده الله بكتاب معجز غير ذي عوج، فهو الكاشف للغمة والماحي للظلمة والهادي إلى الصراط المستقيم، حيث يقول:

يا من كفى المصطفى كيد الأولى كفروا إذا جاءهم بكتاب غير ذي عرج

يا من وقاه الرّدى في الغار إذ نسجت ببابه عنكبوت خير منتسج

وهنا يتمثل أبو حمو قول الله تعالى:﴿ **إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[13]

إنّ الغرض من اعتماد الشاعر على التّناص القرآني للتّأثير في المتلقي أولا، وتقريب الصّورة له ثانيا، كما يعدّ التّناص عند الدّارسين شكلا من الإبداع الفنّي، يعكس الخلفية الثّقافية للشاعر.

3-2 التّناص بالشّعر العربي:

يعدّ الشّعر العربي القديم من أثرى المصادر وأقربها إلى نفوس الشّعراء، والّذي لا ريب فيه أنّ هذا المصدر له أهميّة كبيرة في تكوين الشّعراء وذلك لتزويدهم بأدوات ووسائل تعدّ حجرا أساسيا يُرْفع عليها البناء، وفي حالة غياب هذه الوسائل يأتي الشعر ركيك اللغة باهت المعنى.

وسأبدأ بالولوج إلى خطاب أبي حمو، بحثا عن وجود التّناص في نظامه الشّعري- بما فيه التّصوّف-من مختلف العصور الأدبية، فقد وجدت في هذه القصيدة الزّيانيّة تداخلات نصيّة مع نصوص شعرية أهمها:

يشير أبو حمو إلى حالته النّفسية، حينما تحيط به المصائب وتضيق الدّنيا بما رحبت فما عليّه إلاّ أن يلجأ إلى الله داعيا متضرعا، أن يكشف عنه الضّر ويبدل حاله هذا إلى أحسن حال وهذا مطلب كلّ مخلوق، يقول في أوّل بيت من قصيدته:

يا من يجيب نـدا المضطـر في الدّيـج ويـكـشـف الـضّـر عـنـد الضـيق والهـوج

فهذا البيت متناص مع بيت لأبي مدين شعيب الّذي يقول في نفس المعنى:

فيا ملـجأ المُضْــطـرِّ عنــد دعـائـهِ أغِثْـنـي فقـد سُـدَّت عـليَّ مـــذاهبِي

ونقدم تناصا شعريا آخر لأبي حمو موسى مع سلطان العاشقين ابن الفارض يقول:

واجعـل لنـــا مخـرجـا فـي إثــره فـــرج فكـــم تـعـــامل بـعـد الـــضيـق بالـــفـــرج

نجد أبا حمو موسى الزّياني متأثرا بشعر ابن الفارض، فكلّ من الشاعرين يؤمنان بأنّه ما حلّ ضيق أو يأس إلاّ وفَرَجٌ من الرحمان يتلوه، حيث يقول ابن الفارض:

أهـلاً بمـا لـم أكـنْ أهـلاً لموقعـهِ قـول المبشّـر بعـد اليـأسِ بالفــرجِ[14]

يقول أبو حمو موسى الزياني أيضا:

ولطـــف رحـمته يـأتـــي علـى قـنـــط إذا القـنـوط دعـــا يـا أزمـة انـــفـرجـــي

فأبو حمو في هذا البيت يدعو الله أن يفرج عنه أزمته الّتي حلت به ، في حين نجد ابن الفارض يصبر للأزمة، ولم يَشْكُ ربّه وغرض ابن الفارض من هذا كلّه ليصل إلى المحبّة الإلهيّة الّتي هي هدف كلّ صوفي، عاشق لمحبوبه، يقول ابن الفارض:

أصبحـت فيـك كمـا أمسيـت مكتئبـا ولـم أقـل جـزعـا: يـا أزمـة انفـرجـي[15]

وواضح من هذا الاختلاف بين ابن الفارض وأبو حمو موسى، نجد تشابها إلى حدّ كبير بين أبي حمو وابن النّحوي صاحب المنفرجة المعروفة باسمه، يقول في مطلعها:

اشّتدّي أزمـة تـنـفـرجـي قـد آذن ليلـــك بالبلـــج[16]

من خلال ما سبق نلاحظ أنّ أبا حمو موسى قد نجح في نقل تجربته الفنّية والنّفسية جعلت الدّارسين يهتمون بشعره، حيث استطاع إنتاج رصيد هائل نبعت من صميم تجربته الشّعرية باستخدامه لجملة من الوظائف الفنّية، بوأته هذه المكانة في الخطاب الصّوفي، لا يقلّ منزلة عمّا أنتجه الشّعراء الآخرون، فقد قادته هذه القصيدة إلى الإفصاح عن ما يجيش في داخله من أحاسيس وأفكار بفضل براعة شاعرنا في استخدامه اللغة، وتمكّنه منها، وذلك من خلال توظيفه لمختلف الظّواهر الأسلوبية، ومنها أسلوب التّناص.

وفي ختام هذه الدّراسة– كما يبدو لي– استطاعت الأسلوبية أن تخترق مكونات النّص الصّوفي بكلّ مستوياتها وتستظهر ما فيه من خصائص أسلوبيّة وجماليّة، ساهمت حقيقة في البناء الكّلي للخطاب الصّوفي، حيث توصلت إلى أنّ لكلّ خطاب خصائصه الأسلوبيّة المميّزة فما يكون في هذا النّص – ونخصّ به الخطاب الصّوفي– قد لا يكون في نص آخر، وإن تطرقا إلى نفس الموضوع، ويبقى دور المتلقي في استحضار خبرته، الّتي تمكّنه من اكتشاف معاني جديدة ولا يكون له ذلك إلاّ إذا تفاعل مع النّص، وبذلك يكون المنهج الأسلوبي كغيره من المناهج قادرا أكثر في التّعامل مع النّصوص الصّوفيّة إذ يكشف عن مكنونات وخفايا قد لا تبلغ إلا بوساطة الأسلوبيّة.

المراجع

1– عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزّيّاني (حياته وآثاره)– الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع– الجزائر– ط3– 1982م. ص362 /364.

2– عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة: تعليق: عبد المنعم خفاجي– ج2– ط1– القاهرة– ص 204.

3– ينظر: برتي الحسين: الحقول الدّلاليّة– مجلة العلوم الإنسانية– جامعة محمد خيضر ببسكرة – العدد 2– 2009م– ص40.

4– عبد الرّزاق الكاشاني: معجم اصطلاحات الصّوفيّة–تح–عبد العال شاهين–دار المنار–القاهرة– ط1–1992م– ص1253.

5– نفس المرجع– ص 1354.

6– سورة النّمل– الآية (62).

7– سورة الزمر– الآية (53).

8– سورة الأنبياء– الآية (83 / 87).

9– سورة الشّعراء– الآية (119).

10–سورة يوسف– الآية (10).

11– سورة الأنبياء– الآية (68– 69).

12– سورة القصص– الآية (07).

13– سورة التّوبة– الآية (40).

14– ابن الفارض: ديوانه– دار صادر– بيروت– لبنان – د ط– دت– ص 147.

15– ابن الفارض: ديوانه– ص 144.

16- محمد بن رمضان شاوش الغوثي الحمادي: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر – ج1– دط– دت– ص 92.